الداخلية وذاك للخارجية وذلك للحربية و بعضهم لانتقاد التمثيل او لانتقاد الكتب . وفي ادارتها اداراتٌ شتى بعضها للاعلانات و بعضها للطبع و بعضها للتوزيع وعلمٌ جرًّا . وسرُّ نجاحها وعماد قوتها كثرة القراء وهي آتية من كثرة المتعلمين في مدينة لندن وحدها نحو ستة ملايين من النفوس وكل بالغ منهم يعرف القراءة والكتابة وكلهم يقرأون الجرائد رجالاً ونساء . وقد لا يقلُّ عددهم عن ثلاثة ملايين من النفوس . ففيها من قراء الجرائد اكثر مما في فارتي اميركا وافريقية واضعاف قرَّاء الجرائد باللغة العربية في كل اقطار المسكونة . وفي ذلك مدينة باريس ونيويورك وشيكاغو فلا عجب اذا صارت الجرائد من اقوى القوى السياسية والاجتماعية . وقد حدث ذلك كلهُ في الربع الاخير من القرن التاسع عشر نجيب صروف

التعليم المفيد

لما كنا نكتب المقالة التي موضوعها « الفاضل فاضل ولو عبدًا اسود » المدرجة في الجزء الماضي من المقتطف عن المستر بوكر وشنطون الذي ولد عبدًا وطلب العلم وهو لا يملك شروى نقير ثم انشأ مدرسة جامعة للعلوم والفنون يتعلم فيها الف طالب من اولاد الزنوج فيخرجون منها قادرين على الاكتساب ومجاراة البيض في وسط بلاد المجد والاجتهاد والعلم والعرفان في الولايات المتحدة الاميركية — لما كنا نخط سطور تلك المقالة كان بوكر وشنطون هذا يخطُّ مقالة اخرى في موضوعها تمامًا . فقد ورد علينا جزء يناير من مجلة السنتشري الاميركية الشهرية التي يكتب فيها مشاهير الكتاب الاميركيين فرأينا فيه مقالة مسهبة من قلم موضوعها « دلائل النجاح بين السود » فاستغربنا هذا الاتفاق وزدنا اكرامًا للرجل واعترافًا بفضله واحمدنا الخاطر الذي خطر لنا لما عنونَّا مقالتنا عنده « الفاضل فاضل ولو عبدًا اسود » . وها نحن نلخص بعض ما اورده في مقالته عسى ان يكون مثالاً للذين يتوخون منا السعي في نفع غيرهم ولا يعلمون السبيل المؤدّي الى ذلك . قال في التمهيد الذي مهدهُ لمقالته

« ان من المسائل الكبيرة عندنا مسألة تعليم ثمانية ملايين من السود سكان الولايات الجنوبية من اميركا وتهذيبهم وجعلهم مثل غيرهم من السكان . وقد اتسع نطاق هذه المسألة الآن لانهُ صار علينا ان نعلِّم نحو ثمانمئة الف نفس من السود سكان كوبا وبورتو ريكو فضلاً عما يجب من تعليم البيض سكان تينك الجزيرتين لان كثيرين منهم في حالة يرثى لها مثل

السود الساكنين معهم. فاذا ابحت للقراء ما نتج من السعي في تعليم السود في هذه البلاد مدة الثلاثين سنة الاخيرة مع ما لقيناه في ذلك من المصاعب الجمة أكون كأني انبأتهم بما سيتج من السعي في نشر التعليم والتهذيب في كوبا وپورتوريكو وايضاحاً لذلك اقص عليهم القصة التالية

كان في البلاد المعروفة ببلاد السود اي التي يزيد فيها السود على البيض رجل من البيض له املاك وسيعة وعنده مئتا عبد يحرثون ارضه ويزرعونها فيكتسب بتعبهم مكاسب وافرة. فلما انتهت الحرب الاهلية بتحرير العبيد اضطر ان يحررهم كلهم لكن الفريق الاكبر منهم بقي في خدمته او صاروا يستأجرون الارض منه يزرعونها. وحدث بعد ذلك انه كان ماراً في ارضه ذات يوم فرأى ولداً صغيراً من اولاد هؤلاء السود في حالة يرثى لها من الجوع والعري فرمى اليه قطعة من النقود ورآه بعد ذلك مراراً فكان يرق له ويرمي اليه غرشاً او نصف غرش. واتفق ان هذا الولد واسمه وليم سمع ان في تسكجي مدرسة يتعلم فيها اولاد السود مبادئ العلوم والفنون بتعبهم اي انهم يعملون ويتعلمون فتوسل الى رفاقه ان يساعدوه على الذهاب اليها فجمعوا له قليلاً من الثياب والنقود بعد العناء الشديد لكن النقود لم تكن كافية لدفع اجرة السفر الى المدرسة فعزم ان يمشي اليها ماشياً وهي تبعد مئة وخمسين ميلاً من المكان الذي كان فيه فحمل ثيابه وسار اليها وبلغت نفقاته في الطريق اربعة غروش لا غير لانه كان يقص قصته على الذين يمرّ بهم فيطعمونه مجاناً. وبلغ تسكجي مقرّح القدمين واتى الي فارسلته الى حيث اغتسل ونظف بدنه ثم وضعته مع الذين يحرثون الارض ويزرعونها لانه كان قد صار للمدرسة الف واربع مئة فدان اصلحنا نصفها وكان التلامذة يزرعونه وحدهم ويستغلونه ويستخدمون في زرعه وخدمته احدث الطرق العلمية المعروفة. فصار يعمل في النهار معهم ويتعلم ساعتين في الليل. وكان في اول الامر يتعب من الدرس وينام وهو امام المدرّس ولكنه تنبه رويداً رويداً وصار يفهم ما يسمع ويزيد رغبة واخذ يسأل عليه مسائل تدلّ على تعطشه الى المعرفة مثل سؤاله عن سبب اعتمادنا على البقر المعروفة ببقر جرزي وبقر هلستين بدل البقر العادية وعن سبب كثرة لبنها وسمنها

ولم تمض السنة الاولى عليه حتى تعلم مبادىء القراءة وجمع بعض النقود من اجرته فدخل الفرق القانونية في السنة الثانية وبقي يعمل جانباً من الوقت في الحقل فلما انتهت السنة وجد نفسه في حاجة الى النقود فكتب الى الرجل الذي ولد بين عبيده يخبره عن دخوله في مدرسة تسكجي وطلب منه ان يقرضه خمسة عشر ريالاً ووعده بايفائها حالما يتمدرس. فطرح الرجل الكتاب ولم يلتفت اليه فكتب اليه ثانية فلم يجبه فكتب اليه ثالثة وحينئذٍ

شعر الرجل بدافع في نفسه يدفعه الى مساعدته فكتب اليّ يخبرني بذلك وبعث اليه بالخمسة عشر الريالات التي طلبها

وبعد ثلاث سنوات وقف هذا الولد وكان قد صار شاباً امام سيده الذي بعث اليه بالخمسة عشر ريالاً وقال له انا الولد وليم الذي كنت ترمي اليه بقطع النقود ثم تكرّمت عليه بخمسة عشر ريالاً وقد اتيت لاشكر فضلك واوفيك دينك ثم دفع اليه المال مع رباه لانه كان قد اتمّ دروسه وعلّم سنة في احدى المدارس واخذ اجرتها. فنظر الرجل اليه نظر الدهشة والاعتبار ثم التفت الى السود الذين يعملون في ارضه وهم مئات لانه كان على ثروة طائلة واملاك واسعة فرأى انه غير قائم بما يجب عليه لهم فقال لوليم تعالَ وافتح مدرسة عندي لاخوانك وكان ذلك منذ ست سنوات . وقد اتسعت هذه المدرسة الآن وصار فيها مئتا تلميذ وخمسة معلمين من الذين تخرّجوا في مدرسة تسكجي وثلاثة مباني وهذا ما يعون فدانًا يمارس فيها التلامذة اعمال الزراعة على انواعها و يتعلمون ايضاً التجارة بفروعها وفيها قسم لتعليم البنات مبادئ العلوم والخياطة وتدبير المنزل . وهي آخذة في انشاء معمل للعدادة وعمل المركبات . والرجل المشار اليه هو الذي بنى المدرسة ووقف عليها الاربعين فداناً وهو يدفع رواتب معلميها ايضاً

ولا يقتصر هؤلاء المعلمون على التعليم في المدرسة بل تراهم يجمعون الفلاحين من البلاد المجاورة ويتذاكرون معهم في المواضيع الزراعية ويعلمونهم الاساليب الجديدة لحرث الارض وزرعها وخدمتها وطرق الاقتصاد المختلفة ويحضر معهم الرجل الكريم المشار اليه آنفاً وهو مسرور بما يراه فيهم من دلائل الاجتهاد والارتقاء

ولما غادر وليم قومه واقى اذ ذاك كانوا على غاية الفقر والذل لا يملكون شيئاً ولا ينظرون الى البيض الاّ نظر الخصم الى خصومهم مثقلون بالديون فاوفى ديونهم الآن ولم يعودوا يرهنون غلة الارض التي يزرعونها كما كانوا يفعلون قبلاً وابتنوا بيوتاً رحبة يسكنون فيها وصلحت احوالهم بعد فسادها. وتمثل هذه المدرسة تحلّ مسألة السود في هذه البلاد وفي بلاد كوبا وبورتو ريكو»

ومما ذكره الكاتب في هذا الصدد ولا نكاد نصدقه لغرابته انه كان في ولاية الاباما احدى ولايات اميركا قانون يمنع البيض من تعليم السود مبادئ القراءة «وكل من يحاول تعليم اسود مبادئ القراءة او الكتابة يعاقب بغرامة لا تقلّ عن مئتين وخمسين ريالاً ولا تزيد على خمس مئة ريال» فأبطل هذا القانون الآن وجاهر احد فضلاء الاميركيين ان على الحكومة الاميركية ان تعلم اولاد السود كما عليها ان تعلم اولاد البيض

والظاهر ان الذين تعلموا من السود تساووا بالبيض في كل الامور وصار البيض يعاشرونهم

ويمازجونهم ويعاملونهم كما يعامل بعضهم بعضاً . وقد ترى كثيرون منهم وامتلكوا الاراضي الواسعة وبنوا المعامل الكبيرة واشتركوا مع البيض في انتخاب رؤسائهم . قال « وما من شيء ازال كراهة البيض لهم واشمئزازهم منهم مثل اصلاح معيشتهم مثال ذلك ان فتاة من الفتيات اللواتي تعلمن في مدرسة تسكجي مضت الى جنوبي البلاد وعزمت ان تفتح فيها مدرسة لتعليم اولاد السود فنظر اليها البيض الذين حالك شرها ولم يرضَ نساؤهم ان يلتفتن اليها فصبرت على الضيم حاسبة انهن انما يفعلن ذلك لما رسخ في نفوسهن من احتقار السود فتوانشأت المدرسة واهتمت بها ثم تزوجت بشاب من السود وبنيا بيتاً صغيراً على اسلوب حسن جداً وانشأا امامه حديقة غناء زرعت فيها ابدع انواع الازهار والرياحين . ومرت بها امرأة من عظماء البيض ذات يوم ورأتها في الحديقة تسقي رياحينها فنظرت اليها متعجبة ثم دخلت الحديقة وطارحتها السلام فاخذت السوداء تتكلم معها عما في حديقتها من انواع النبات كلام امرأة متعلمة متهذبة فعجبت البيضاء منها ودخلت بيتها ولما رأت غرفه واثاثه ورياشه وما فيه من الكتب والجرائد وحسن الترتيب والتنظيم ارتفع مقام السود في عينيها واخبرت صديقاتها بما رأت فصار لتلك المرأة السوداء المقام الاول في ذلك البلد . ولو بقي الكتّاب والخطباء اعواماً يحثون البيض على اعتبار السود اخواناً لهم ما افلحوا في ذلك قدر ما افلحت فيهم هذه المرأة السوداء بتنظيم بيتها وزرع حديقتها واقناعها نساء البيض بهذا الدليل الحسي انها ليست دونهن عقلاً وذوقاً

ومنذ بضعة اشهر اقيم معرض زراعي في بلد اسمه كلهون في ولاية الاباما وفي هذا البلد مدرسة كبيرة للسود وعرض تلامذتها والذين تعلموا فيها معروضاتهم الزراعية من القطن والاثمار فلما رآها البيض بالغة حد الغرو اعجبوا بها والتفتوا منها الى اصحابها فارتفعت منزلة السود في عيونهم ورأوا فضل التعليم والتهذيب . فللمدارس التي تعلم اولاد السود وتهذبهم الفضل الاول في ترقية شانهم وربط البيض بهم برباط الالفة والصداقة »

ثم افاض الكاتب في وصف مدرسة تسكجي وذكر تاريخ انشائها واتساعها على نحو ما ذكرناه في الجزء الماضي من المقتطف ووصف كيفية انشاء مبانيها المختلفة فقال

حينما نعتزم على بناء دار جديدة يخبر استاذ فن الرسم تلامذته عن اوصاف الدار التي نريد بناءها ويطلب منهم ان يرسموا رسماً صالحاً لها ويعدهم بجائزة تعطى لصاحب الرسم الذي يختار منها فيتبارى التلامذة في الرسم ويختار رسم من رسومهم ويقام البناء بمساعدتهم ومساعدة غيرهم من التلامذة حسب الفروع التي يتعلمونها فيعمل بعضهم في تهيئة الاجر وبعضهم في نشر

الخشب وبعضهم في عمل الابواب والتبابيك وبعضهم في تشييد البناء ودهنه وهلمَّ جرًّا واساتذتهم يشرحون لهم اسرار صناعاتهم حتى يتعلموها علمًا وعملاً فيتعلم التلامذة الصناعة وتكسب المدرسة البناء. وهذه القاعدة متبعة في اماكن غسل الثياب واماكن خياطتها لان البنات اللواتي يتعلمن في المدرسة يتعلمن ايضًا كل الاعمال البيتية ويمارسنها وهنَّ يغسلن كل ثياب التلامذة ويخطن اكثرها. انتهى

ويظهر ممَّا اورده الكاتب من الامثلة انهُ اذا اتمَّ التلميذ دروسهُ في هذه المدرسة وخرج منها لمعاطاة الاعمال لم يحتج ان يبحث عن عمل يعمل فيهِ بل ترى اصحاب الاعمال يبحثون عنهُ فما ابعد الشبه بينها وبين مدارس القطر المصري التي يخرج التلميذ منها وابواب الاعمال والوظائف مسدودة في وجههِ وليس اللوم عليهِ ولا على البلاد بل على المدارس التي لا تعلم الطلبة الاَّ قواعد كتابية لا تصلح للعمل فلو عليتهم عملاً مقرونًا بالعمل لوجدوا الاعمال في انتظارهم ولو عدُّوا بالالوف ولا يبقى لوظائف الحكومة الاَّ من يرضى بالخمول او يكون من قوم لهم جاه عريض فيرشح للمناصب العالية

هذه خلاصة ما ذكرهُ الكاتب وقد عنينا بترجمتهِ ونشرهِ لاننا نرى فيهِ اقرب حلٍّ لمسألة نشر العلوم والفنون في هذا القطر وغيرهِ من الاقطار الشرقية اي ان يغيَّر نظام المدارس العمومية حتى تصير تعلِّم العلوم والاعمال في وقت واحد فيتعلم فيها التلميذ مبادىء العلوم الطبيعية والادبية والرياضية ويتعلم ايضًا الفلاحة او التجارة او الحدادة او السكافة او الخياطة او البناء او ما اشبه من الاعمال المعاشية حتى اذا اتمَّ دروسهُ في المدرسة خرج منها وهو يعرف حرفةً ما معرفةً تامةً فيستطيع ان يعتمد على نفسهِ ويعيش مثل الفلاحين من ابناء وطنهِ. وتعلم فيها التلميذة مع مبادىء العلوم الطبيعية والادبية كيفية تدبير المنزل والقيام باعمالهِ المختلفة مثل الطبخ والغسل والخياطة وما اشبه وبذلك تصلح المساكن وتحسن تربية الاولاد وترتقي آداب العائلة ويسود الاجتهاد والاقتصاد على البلاد كلها وبغير ذلك لا نرى سبيلاً للنجاح المطلوب

ومما هو حريٌّ بالذكر ان المدارس المشار اليها لا تقتصر على تعليم الصبيان بل يتعلم فيها الصبيان والبنات ولا يظهر انهم يتعلمون في فرق واحدة ولا في بناء واحد بل يتعلم الصبيان في بناء والبنات بناء آخر بعيد عنهُ ولكن لا تنشأ مدرسة للصبيان حتى تنشأ مدرسة للبنات فيسير تعليم الصبيان والبنات سيرًا واحدًا ويستعد الفريقان للمعيشة على حدٍّ سوى. وهذا اساس الارتقاء الصحيح الثابت